مشروع يسلم ولا يستعرض



مدارج



كان طارق وزياد وفهد ومازن جميعا في السابعة عشرة، وكانوا فريقا في مدرسة للبنين. كان العنوان أكبر من المسرح: «منصة مهارات المستقبل». وفي الفيديو التعريفي، انتقلت الكلمات بسرعة: تعلم، وتطوع، وتأثير، ومائة فرصة في أسبوع واحد. وقف فريق الطلاب خلف الشاشة يرتدون قمصانا متشابهة، وينتظرون تصفيق الحضور.

كانت الفكرة في أصلها بسيطة. بعض الطلاب يعرفون مهارات يمكنهم تعليمها، وبعضهم يحتاجون إلى مساعدة في مهارة محددة. اقترح طارق لوحة مواعيد يعرض فيها الطالب نصف ساعة لشرح جدول رقمي، أو مراجعة سيرة ذاتية، أو تدريب على العرض. لكن الفكرة كبرت كلما أضيف إليها شخص.

قال زياد: «نحتاج إلى هوية بصرية كاملة». وقال فهد: «لنضف نظام نقاط وشارات». وقال مازن: «يجب أن نطلقها في حفل كبير، وإلا لن يسمع بنا أحد». خلال ثلاثة أسابيع، صمموا شعارا، ومقطعا، وبطاقات، وعدادا يعرض عدد المسجلين. لكنهم لم يجربوا موعدا واحدا بين متعلم ومدرب.

في يوم الإطلاق، دخل إلى الصفحة مائة وسبعة وثلاثون طالبا. صفق الفريق عندما تجاوز العداد المائة. وبعد ساعة، وصلت أول رسالة: «سجلت لتعلم الجداول، ولم يصلني موعد». ثم وصلت رسالة ثانية: «أنا مسجل كمدرب، ولا أعرف من سأدرب». وكتب طالب ثالث: «هل الشارة تعني أن المدرب معتمد؟».

لم يكن لديهم جواب واضح. كان نظام التسجيل يجمع الاسم والمهارة، لكنه لا يطابق الأوقات، ولا يبين حدود المساعدة، ولا يذكر أن المدربين طلاب متطوعون وليسوا خبراء معتمدين. أما الشارات فقد كانت تحسب بعدد النقرات، لا بخدمة تمت.

في آخر اليوم، ظهر العداد جميلا في الصور: مائة وسبعة وثلاثون مسجلا. أما عدد المواعيد التي تمت فكان صفرا.



في الاجتماع التالي، اقترح فهد إطلاق حملة ثانية. قال: «نحتاج إلى انتشار أكبر. عندما يزداد العدد، سنجد تطابقا أفضل».

سأل طارق: «تطابق بين ماذا وماذا؟ نحن لم نبن طريقة تطابق أصلا».

قال زياد: «لا نريد أن يبدو الإطلاق فاشلا».

أجاب طارق: «إذا كانت الخدمة لم تبدأ، فالصورة ليست مشكلتنا الأولى. لدينا أسماء ناس ووعود أرسلناها. يجب أن نوقف التسجيل الجديد، ونخبر المسجلين بما حدث، ثم نصلح المسار».

لم يعجبهم الاقتراح. إيقاف العداد بعد حفل كبير يشبه الاعتراف أمام الجميع. لكن مازن فتح صندوق الرسائل، ووجد تسعا وعشرين رسالة لم تجب. قال: «لا يصير التأخير أقل حقيقة لأننا لا نذكره».

أوقفوا التسجيل، وأرسلوا إشعارا واضحا: «أطلقنا النظام قبل اختبار آلية المواعيد. لن نضيف طلبات جديدة حتى نراجع القائمة الحالية. يحق لك حذف بياناتك، أو الانتظار حتى نرسل موعدا محددا». ثم حذفوا الشارات التي قد تفهم كأنها اعتماد.



عند مراجعة النموذج، وجدوا أنهم طلبوا رقم الهاتف وتاريخ الميلاد ورابط الحساب الشخصي، مع أن البريد المدرسي يكفي للتواصل. لم يكن أحد قد سأل: لماذا نجمع هذه البيانات؟ كانت الخانات قد نسخت من نموذج قديم، ثم بقيت لأنها بدت «احترافية».

قال مازن: «لدينا الآن معلومات لا نحتاجها. لا يكفي أن نعد بحمايتها؛ يجب أن نمحو ما لا حاجة لنا به».

حذفوا الحقول من النموذج، وطلبوا من مشرف النشاط مساعدتهم في حذف النسخ القديمة حذفا صحيحا. ثم أرسلوا تصحيحا إلى المسجلين: «جمعنا بيانات أكثر مما تحتاجه الخدمة، وبدأنا حذفها. سيبقى البريد المدرسي واختيار المهارة فقط ما دام الطلب قائما». كان الاعتراف محرجا، لكن الإحراج لم يكن سببا لحفظ ما لا يحق لهم أن يحفظوه.



بعد ذلك، مسحوا اللوح الكبير، وكتبوا أربعة أسئلة: من المستفيد الأول؟ ما الحق أو الحاجة التي نعد بها؟ ما أصغر تسليم يمكن فحصه؟ ومن يتحمل المسؤولية إذا لم يتم؟

اختاروا من القائمة عشرة طلاب يحتاجون إلى مراجعة السيرة الذاتية قبل موعد تقديم قريب. لم يختاروهم لأن المهارة أجمل في الإعلان، بل لأن لها حاجة ووقتا معلومين. وجدوا أربعة طلاب لديهم خبرة سابقة في إعداد السير، وطلبوا من معلم

مختص أن يراجع نموذج الجلسة وحدودها.

كتبوا وصفا أقل بريقا وأكثر دقة: «جلسة مراجعة من خمس وعشرين دقيقة. يقرأ الطالب المتطوع السيرة، ويسأل عن الوضوح والترتيب والأخطاء الظاهرة. لا يكتب السيرة بدلا من صاحبها، ولا يضمن قبولا، ولا يطلب بيانات لا تلزم للمراجعة».

بنوا جدولا يدويا لعشر جلسات فقط. لكل جلسة وقت ومكان واسم مسؤول وطريقة إلغاء. وقبل البدء، جربوا الجلسة مع طالب واحد ومراجع واحد. كان الوقت خمسا وعشرين دقيقة على الورق، ولكنه استغرق أربعين دقيقة؛ لأن النموذج طلب شرحا طويلا للمهارات.

لم يقولوا إن التجربة نجحت لأن الطالب شكرهم. سألوا: هل خرج بتعديل يستطيع تطبيقه؟ هل حفظت بياناته؟ هل الوقت واضح؟ هل استطاع المراجع أن يتبع النموذج؟ وجدوا أن ثلاثة أسئلة في النموذج مكررة، وأن خانة «الهدف الوظيفي» تدفع الطالب إلى كتابة معلومات لا يحتاج إلى مشاركتها.

حذفوا الخانة، واختصروا النموذج، وأعادوا التجربة. في المرة الثانية، انتهت الجلسة في ثمان وعشرين دقيقة، وخرج الطالب بثلاثة تعديلات مكتوبة. لم يكن هذا «تحولا شاملا». كان تسليما صغيرا يمكن رؤيته وفحصه.



بدأت الجلسات العشر. في الجلسة الثالثة، لم يحضر المراجع. كان من الممكن أن يطلبوا من الطالب الانتظار حتى يجدوا شخصا، لكنهم كانوا قد وضعوا خطة تعثر: يتصل المسؤول بديلا محددا خلال خمس دقائق، وإلا يعرض موعدين جديدين ويعتذر بوضوح. حضر البديل، ثم سجلوا السبب: لم يصل تذكير الموعد إلى المراجع.

أصلحوا التذكير، لكنهم لم يمحوا الواقعة من التقرير. كتبوا: «تعثرت جلسة، وفعل البديل بعد سبع دقائق». كان الاعتراف أدق من عبارة «نسبة نجاح كاملة»، وأنفع للمرة التالية.



في نهاية الأسبوع، تمت تسع جلسات، وألغيت واحدة بطلب صاحبها. من التسع، خرج ثمانية طلاب بتعديلات محددة، واحتاجت سيرة واحدة إلى إحالة إلى المعلم؛ لأن صاحبها سأل عن أمر يتجاوز حدود المتطوع. لم يحسبوا الإلغاء فشلا، ولم يحسبوا الإحالة نقصا. كان كلاهما جزءا من خدمة تعرف حدودها.

أرسلوا بعد كل جلسة سؤالين فقط: «ما التعديل الذي أصبح واضحا لك؟ وما الجزء الذي بقي مبهما؟». لم يطلبوا تقييما من خمس نجوم ليضعوه في الإعلان. وجدوا أن ستة فهموا كيف يقصرون الوصف ويقدمون الخبرة الأهم، وأن طالبين ما زالا لا يعرفان كيف يصفان عملا تطوعيا.

كان من السهل أن يكتبوا في التقرير: «ثمانية مستفيدين راضين». لكن طارق قال: «هذا لا يقول ما تعلموه، ولا ما لم نستطع شرحه». فأضافوا إلى النسخة التالية مثالين لوصف العمل التطوعي، وأبقوا الملاحظة في التقرير كما هي.

في الاجتماع، سأل مشرف النشاط: «هل أنتم مستعدون لإضافة مهارة ثانية؟».

نظر فهد إلى الجدول. قال: «نستطيع أن نضيف، لكننا لم نثبت بعد من يراقب التذكيرات والإلغاءات. إذا وسعنا العنوان قبل أن نثبت الواجب، سنعود إلى المشكلة نفسها».

اتفقوا على أسبوعين آخرين للخدمة نفسها. وضعوا تناوبا للرسائل، وحدا أقصى لزمن الرد، وطريقة لتسليم المهمة إذا غاب أحد. لم يكن التوسع جائزة يفوز بها الفريق؛ كان مسؤولية لا تبدأ قبل أن يقدروا عليها.

عاد الفريق إلى المائة والسبعة والثلاثين مسجلا. حذف أحد عشر شخصا بياناتهم، واختار بعضهم الانتظار، وأجاب الفريق عن الرسائل المتأخرة واحدة واحدة. ثم أعادوا فتح التسجيل لعشرين طلبا جديدا فقط، لا لمائة أخرى.

اقترح زياد مقطعا جديدا. قال: «هذه المرة نستطيع أن نظهر الجدول والخطوات وما تعثر. لا نحتاج إلى أن نقول إننا غيرنا مستقبل المدرسة».

قال مازن: «ولا نقول إن المشروع اكتمل. لدينا خدمة واحدة تعمل في حجم صغير، وثلاث مهارات أخرى لم نختبرها بعد».

أما العنوان الكبير، فأنزلوه من فوق المسرح. وضعوا بدلا منه لافتة أصغر: «مواعيد مراجعة السير الذاتية — نسخة تجريبية». لم تعد اللافتة تعد بمائة فرصة، لكن الطالب الذي يحجز موعدا يعرف ما الذي سيصله، ومتى، وممن، وماذا يفعل إذا لم يصل.

في الاجتماع الأخير، فتح فهد صورة يوم الإطلاق، ثم فتح جدول الجلسات. قال: «هنا كنا نملك صورة مشروع. وهنا نملك مشروعا يمكن أن نسأله: لمن؟ وماذا سلم؟ وما الذي سيصلحه؟».

لم يكن الجدول جميلا في صورة. كان فيه موعد ملغى، وخانة تعثر، وملاحظات عن أخطاء صغيرة. ولذلك بالذات، كان أصدق من العداد اللامع. فالمشروع الذي يخدم لا يخاف من أن يفحص، ولا يجعل العرض بديلا عن التسليم.

قبل أن ينصرفوا، أغلق طارق ملف العرض القديم، وثبت في أعلى اللوح سؤالا واحدا للأسبوع التالي: «ما الحق الذي سيصل إذا فعلنا واجبنا؟». تحته كتب فهد: «ومن سيعرف أنه وصل؟». لم يكن السؤالان شعارين جديدين. كانا مقياسين يعودون إليهما قبل كل إضافة، وعند كل تعثر، وقبل أن يطلبوا من الناس أن يصفقوا.

مصدر الإلهام وحدوده

هذه قصة معاصرة متخيلة؛ الأشخاص والحوار والأعداد ونتائج المشروع أمثلة قصصية، وليست وقائع تاريخية أو نتائج تجربة ميدانية منقولة من المصدر.

مصدر الاستلهام: مدارج، حتى تستقيم، المجلد الرابع، الصفحات الفعلية ٦ و١٢ و١٣٩ من ملف PDF. تؤخذ منها معاني البدء بالتزام محدود، واختبار العمل بدل الاكتفاء بالحماسة، وتحديد موضع التعثر وإصلاحه دون محو ما بقي من الخير.

الدورة التربوية مقترح، لا مقياس نفسي معتمد ولا علاج ولا ضمان نتائج. أرقام الجلسات والانتظار في هذه القصة متخيلة، ولا تثبت معيارا عاما للخدمة. الصور ترتيبات تعليمية رمزية للأشياء، لا تصويرا تاريخيا لممتلكات أشخاص.

ملف المصدر: https://madarej.org/wp-content/uploads/2026/10/Hatta_Tastaqim_Volume_04_v2.1-covers-r20261003.pdf